الواجِبُ المُحَتَّمُ علىٰ كل عاقلٍ

أن يُؤْثِرَ كتاب الله تعالى

علىٰ كلِّ كتاب سواه

الإمام الشيخ

عبد الله سراج الدين

رحمه الله تعالى ورضي عنه

هذا البحث مقتبس من كتاب

(هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان)

من الصفحة ٥٦ حتى الصفحة ٦٤

للشيخ الإمام

عبد الله سراج الدين الحسيني

بناءً على توجيهات ولده

المهندس الشيخ

محمد محيي الدين سراج الدين

رحمهما الله تعالى ورضي عنهما

ويمكنك تحميل هذه الأبحاث القيّمة

وتحميل جميع كتب الشيخ الإمام

من موقعه الرسمي والوحيد

WWW.SRAJALDEN.COM

قسم: كتب الإمام

تحميل كتب الإمام وتحميل أبحاث مختارة

مدير الموقع:

الشيخ عبد الله محمد محيي الدين سراج الدين

فصل
الواجب المحتم على كل عاقل
أن يؤثر كتاب الله تعالى على كل كتاب سواه

إنَّ شأن العاقل إذا سمع بكتابٍ لعالمٍ كثير العلم ، أن يتسارع إلى قراءة ذلك الكتاب وتفهمه بتشوُّقٍ وحرص ، وعزم وجدٍّ ، والذي يحمله على ذلك هو وثوقه بعلم ذلك العالم ، ويقينه بأن مضامين الكتاب متفوِّقة في العلم والبيان والتحقيق ، على حسب تفوق ذلك العالم الذي صنَّف الكتاب.

وإن فوق كلِّ ذي علمٍ عليماً ، حتى ينتهي العلم إلى الله تعالى الذي هو بكل شيء عليم ، والذي أحاط بكل شيء علماً ، والذي قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ والذي قال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وقد حدَّثنا أصدق خلق الله أجمعين ، وأعلمهم برب العالمين ، القائل: «أما والله إني لأعلمكم بالله وأتقاكم له».

حدثنا حديث موسى مع الخضر عليهما السلام ، وأنه جاء عصفور فنقر نقرة من البحر على مشهد موسى والخضر عليهما السلام.

فقال الخضر لموسى عليهما السلام: «يا موسى: ما علمي وعلمك، وعلم سائر الخلائق في علم الله تعالى؛ إلاَّ كما أخذ هذا العصفور من البحر» الحديث كما في الصحيحين.

وهذا المَثَلُ في القِلَّةِ يُوَضِّح لك المراد في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

إذا فهمتَ ذلك أيها العاقل اللبيب، فاعلم أن هذا الكتاب العزيز كتاب الله تعالى، أنزله على رسوله الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم، وفيه من صنوف العلم، وفصول الحكمة ما لا يحيط به إلا الله تعالى.

وقد نبَّه الله تعالى عباده، وأعلمهم بذلك، ليُقْبِلوا عليه بقلوبهم وعقولهم، وليفقهوه ويتدبَّروا ما فيه، ويدرسوه بجدٍّ واجتهاد.

فقال سبحانه: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

وقال: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾.

وقال تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾.

وقال: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ أي: ذي الحكمة.

وقال تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

فهو منبع العلم والحكمة، فمنْ كان يَبغي العلم والحكمة فلينظر وليتدبَّر في هذا الكتاب الذي فيه الكفاية، وإليه المنتهى والغاية.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ الآية، أي: فلا تتطلّع إلى شيءٍ سواه، فإنَّه يكفي عن غيره ولا يكفي عنه غيره.

وبيَّن سبحانه لعباده أنَّ هذا الكتاب جاء تبياناً لكلّ شيء، مما تتوقف عليه سعادة الحياة الدنيا وصلاحها ونجاحها، وسعادة الآخرة وفلاحها، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ ففيه البيان والبرهان، والحجج والبينات.

وإنّ بيان كلّ مُبَيِّن وبرهانه على قدر علمه، فإذا أبان الإنسان عن كائنٍ مَا كان بيانه على قدر ما يدرك منه، وهو لا يحيط علماً به، فلا يمكنه أن يَبْلغ الغاية في البيان عنه، وإذا أخبر الإنسان عن أمرٍ مضى، فخبره على قدر ما بقي من ناقص علمه به الباقي في ذاكرته، لأن الإنسان يلازمه النسيان، على أن علمه بما أخبر هو على حسب ما بلغه وعَلِمَهُ من الخبر.

وأما بيان الله تعالى عن الكائنات، فهو البيان البالغ الغاية والنهاية: لأنه سبحانه قد أحاط علمه بحقائق تلك الكائنات، وصفاتها، وعوارضها، وهو سبحانه لا يَضِلُّ ولا ينسى، قال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾، وقال تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿لِّتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾، وقال: ﴿وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾.

وهكذا جاءَتِ البَرَاهِيْن القُرآنية صادِرَةً عَنْ عِلْمِه سبحانه، صَادِعَةً بِحُجَّته، قاطعة بِبَيِّنته، بحيث لا تَعارض ولا تَناقض.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ ، وقال: ﴿ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ .

إذاً ماذا يجب أن يكون موقفك مع كتاب الله تعالى أيها العاقل؟ .

نعم يجب عليك أن تعرف أنّ هذا القرآن الكريم هو كلام الله تعالى رب العالمين ، وهل هُناك أحد أعلم من قائله والمتكلم به؟ ، وهل ينال أحد علماً إلا من قائله سبحانه؟ .

فإذا كان الله عزّ وجلّ هو عندك أعلم العلماء ، بل لا عِلَم لِعالم إلا من تعليمه سبحانه له ما شاء أن يعلمه ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ ، وقد قال سبحانه: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ حَتّى يَنْتَهِيَ العِلم إليه سبحانه ، فإنه إليه المنتهى ، وليس له انتهاء ، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (مَنْ أحبَّ العلم فليُثَوِّر ـ أي: فليقرأ ـ القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين) .

فإذا عرفتَ ذلك حقاً ، لم تُؤْثر على كلامه سبحانه عِلْماً ولا كتاباً سواه ، بل تُقبل على كتاب الله تعالى بقلبك وعقلك وحواسِّك ، حُبّاً لقائله ، وتعظيماً وإجلالاً للمتكلم به ، لأنه كلام رب العزة والجلال ، الكبير المتعال ، الذي أحاط بكل شيء علماً ، فأفاضت آيات كتابه حِكَماً وحُكماً ، أنزله على عباده ليعرفهم به نفسه: بصفات كماله ، ونعوت جلاله وإفضاله ، ويذكرهم به نِعمه وأيّامه ، ويُنبههم من رَقدة الغافلين ، ويُحيي قلوبهم بحياة الإيمان ، وينور بصائرهم بنور الفرقان ، ويَشفي صدورهم، ويزيل جَهْلهم ، وينفي شُكُوكَهم ، ويَدْحَضَ شُبُهاتهم ،

ويغسل به دَنسهم ، ويوضح لهم سُبُل الهُدى ، ويحذِّرهم من مهواة الغَيِّ والضلال والردىٰ ، ويهديهم سبيل الرشاد ، وما فيه صلاح العباد والبلاد.

جاء لكافة العالم بالهدى ، وبَيِّناتٍ من الهدى والفرقان ، الذي يميز الحق من البطلان.

فهذا كتاب الله تعالى العليم العلاّم ، ذي الجلال والإكرام ، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، ولا في أعماق البحار ، ولا في أعالي الأجواء ، فَحُقّ لهذا الكتاب العظيم: أن لا تشبع منه العلماء ، ولا العقلاء الأذكياء ، ولا الحكماء والعرفاء ، ولا أولوا الثقافة والحصافة.

فهو الكتاب العزيز الذي لا يَخلَقُ على كثرة الرَدِّ ، ولا تنقضي عجائبه ، ولا تُحدّ فضائله ومناقبه ، ترىٰ فيه الحجَّة والبرهان كأنها المشاهدة بالعيان ، على مَدَى العصور وتعاقب الأزمان ، مع الإيجاز والإعجاز ، فهو كتاب هَدْيٍ مع البينات ، وكتاب دعوةٍ تُعانِق الحجة ، وهو منهج مع الدليل ، والله تعالى يقول الحق وهو يهدي السبيل.

فيا أيُّها اللبيب العاقل ، أقبل بِكُلِّيتك عليه ، وأكثر من تلاوته مع التدبّر والإصغاء إليه ، فَإن الله تعالى الذي أنزله ضَمِن للمُقبلين عليه بعقولهم وقلوبهم أن يُفَهِّمَهُم كلامه ، ويَنفعهم به ، فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ ، والذِّكرى تنفع المؤمنين لا محالة.

فاتق الله تعالى أيها المسلم ، وإيَّاك أن تهجر كتاب الله تعالى

وتواصل ما سواه ، وإياك أن تكترِث بغير كتاب الله تعالى أو تهتمّ به ، أو تُعَظِّم في نفسك وقلبك وعقلك ما سواه من الكتب ، ولا تعظم كتاب الله تعالى ، أو تثق بعلوم كتب المخلوقات أكثر من ثقتك بعلوم كتاب الله سبحانه ، أو تولَعَ في كتب العباد أكثر من ولوعك بكتاب ربِّ العباد ، ولقد حذَّر الله تعالى هذه الأمة مِمّا تورّطتْ فيه الأمم الكافرة السابقة فقال: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ أي: واستهزأوا بما جاءتْ به الرسل ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي: دمّر الله تعالى عليهم.

بل الواجب عليك شَرعاً وعقلاً وذوقاً ووُجداناً وفطرةً: أن تؤثر كتاب الله تعالى على كل كتاب ، وخِطابَه الوارد فيه على كلِّ خطاب ، ويَعظُم كلام الله تعالى في قلبك وعقلك ونفسك فوق كل كلام سواه.

وإذا كنتَ تُجِلّ كلام العالِمِ لعلمه فلا أعلم من الله تعالى ، بل له العلم المطلق كله.

وإن كنتَ تُجّلُ كلام الحكيم لحكمته فالقرآن الحكيم فوق كل كلام حكيم.

وإن كنت تجلّ كلام العظماء والكبراء فلا أعظم ولا أجلَّ ولا أكبر من الله تعالى الذي له الكبرياء في السماوات والأرض.

وإن كنتَ تُجلّ كلام الخبير لخبرته فالله تعالى هو العليم الخبير.

وإن كنتَ تُعزّ كلام العزيز لعزته فلله العزة جمّيعاً وهو ربّ العزة.

وإن كنتَ تحترم كلام القُدماء فالله تعالى هو القديم الذي لا أوّل له ولا شيء قبله ، وكلامه قديم لم يَتَقدَّمْهُ كلامٌ ـ جلّ وعلا.

فانتبه من غفلتك ، واستيقظْ من رقدتك ، ولا تكن من الذين أُولِعُوا بكتب أعداء الله تعالى ، ونبذوا وراءهم كتاب الله ، واتخذوه مهجوراً ، وجعلوا كتاب أعداء الله تعالى ديواناً منشوراً ، مُقبلين على قراءته ودراسته.

واعلم أيها المسلم أن هذا الكتاب الإلٰهي له بيان نازل بالوحي من الرحمن ، على أكمل إنسان ، وسيد ولد عدنان ، سيدنا محمد صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وقد أحال سبحانه العباد إلى ذلك البيان المُحَمّديّ فقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ ، وذلك بعد ما بيَّنه له سبحانه حيث قال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ ، فَبَيّنَ الله تعالى القرآن لرسوله الكريم صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وأمره أن يُبين ذلك للناس.

فلا بدّ في مفاهيم القرآن من الرجوع إلى هذا الميزان ، وهو البيان المحمدي المسمّى بالحديث وبالسنة ، المشتملة على أقواله وأفعاله وتقريراته صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم.

فما وافقَ هذا الميزان ولم يخالِفْه فهو حقٌّ وعدلٌ ، وما كان غير ذلك فهو باطل وظلم ، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: السنة، وقد سمَّاها سبحانه أيضاً الميزان فقال

تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ فهذا الميزان هو الحكمة، وهو السنة النازلة من عند الله تعالى ، كما صرَّحتْ بذلك الآية.

فليس كتاب الله تعالى لُعبةً لِلّلاعبين ، ولا مُتأوّلاً للجاهلين ، بل هو منهاج حقٍّ ، ومنار صدق للجادِّين في علمهم وعملهم ، وبحر العلوم للعلماء الراسخين ، وهو قَوْلٌ فصل (هو الفصل) ، وليس فيه هزل ، جاء بفصل الخطاب ، وليس فيه ارتياب ، وهو البحر في علومه ومعارفه وحِكَمه وأسراره ، فطوبىٰ للعارفين الغارقين ، وللعلماء الراسخين.

فإن بحثتَ عن العقائد فلقد جاءك القرآن الكريم بأقومها.

وإن بحثتَ عن الشرائع فلقد جاءك بأحكمها.

وإن بحثتَ عن الأخلاق فلقد جاءك بأكملها.

وإن بحثتَ عن الآداب فلقد جاءك بأرفعها.

وإن بحثتَ عن القَصَصِ فلقد جاءك بأحسنها.

وإن بحثتَ عن العلوم فلقد جاءك بأوسعها.

وإن بحثت عن العوالم جاءك بالخبر عن أعلاها وأسفلها.

وإن بحثت عن معرفة نفسك جاءك بالبيان عن خصائها وصفاتها ومقاماتها ومنازلها.

وإن بَحَثْتَ عن أخبار الماضين جاءك القرآن بأصحها وأصدقها.

وإن بحثت عن الأمثال فقد جاءك بأمثلها: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾.

وإن بحثت عن تقلبات الإنسان في العوالم الآتية جاءك القرآن الكريم بالجواب الكافي ، والدليل الشافي من كل شك وشبهة.

وإن بحثت عن عالَم المادّة وجَدت فيه بيان كلّ عنصر ومادّة.

وإن بحثتَ عما وراء المادة وجدته يأتيك بالحقائق الثابتة ، ويسير بك على وضوح الجادّة ـ كما سيتضح لك في القسم الثاني الذي يلي هذا القسم الأول إن شاء الله تعالى.

* * *